الفقهاء الأربعة للأطفال

الإمام محمد بن إدريس الشافعي

عالم قريش الذي ملأ الأرض علما

محمد ابراهيم سليم

سليم ، محمد
الإمام محمد بن إدريس الشافعى: تأليف محمد إبراهيم سليم
القاهرة: دار الطلائع للنشرو التوزيع ، ٢٠٢١.
٤٨ ص ؛٢٤سم
سلسلة الفقهاء الأربعة للأطفال
تدمك: ٤ ٩١٥ ٢٧٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - قصص الأطفال
أ - العنوان
٨١٣,٠٢

رقم الإيداع: ٢٠٢١/١٥٤٨
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 277 - 915 - 4

تصميم الغلاف الفنان: زكريا عبدالعال

٥٩ شارع عبد الحكيم الرفاعي -
خلف التوحيد والنور - مدينة نصر - القاهرة
تليفون: ٢٢٧٤٤٦٤٢ (٢٠٢+)
تو فاكس: ٢٣٨٩٦٦٤٩ (٢٠٢+)
E-mail : info@altalae.org
Web site: www.altalae.org

جميع الحقوق محفوظة
للناشر
يحظر طبع أو نقل أو ترجمة أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب دون إذن كتابي سابق من الناشر، وأية استفسارات تطلب على عنوان الناشر.
© 2021

بين يدى الإمام

ذات يوم دار حِوَارٌ بين «الإمامِ أحمدَ بنِ حَنْبَلٍ»، وابنهِ «عبدِ الله» حولَ: «الإمامِ الشافِعيّ»!

حيث قال عبدُ الله لأبيه:

أيُّ رجلٍ كان الشافِعِيُّ؟!

فإنى سمعتُك يا أبي تُكثرِ الدُّعاءَ له!!

فقال الإمامُ أحمدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان الشافعيُّ يا ولدي:

- كالعافيةِ للبدنِ!
- وكالشَّمسِ للدُّنْيَا!
- فهَلْ لهذَيْنِ من خَلَفٍ؟!
- أو عَنْهُمَا من عِوَضٍ؟!

وأدرك عبدُ الله – منذُ تلك اللحظة – سِرّ دُعاءِ والدهِ للشافعى!! وعرف من هو الشافعى!

إنه ليس أحدَ أئمة الفقهِ الأربعةِ فحسبُ، بل هو عالمُ قريشٍ الذي مَلأَ طِباقَ الأرضِ علْمًا!

وهو الإمامُ الذي يَلْتَقِى مع رسولِ الله ﷺ في جَدِّهما «عبدِ مَناف». حيث يَنْتَهِى نَسَبُهما إلى عَدْنان!

وهو قَرَشِيُّ الأبِ والأُمِّ!

وعرف «عبدُ الله» أن الإمامَ الشافعىَّ نشأَ يتيمًا فقيرًا، وتحدّى كُلَّ الصِّعَابِ... وتخطّى كُلَّ العقباتِ في عزمٍ، وإصرارٍ، وصَبْرٍ، وتَضْحِيَةٍ، وسَهَرٍ وجَلَدٍ حتى صار للناسِ إمامًا، وشهدَ لَهُ الجَميع!

ومن يتأملْ حياةَ «الشافعيِّ»، وموقفَ أُمِّه منه وهى تُوجِّهُهُ، وترشدُه، وتُؤيدُه، وتُساندُه، وتَدُلُّه على أفاضلِ العلماءِ ليَتَلقّى العلمَ على أيديهم، يُدْرِكْ أثَر الأُمِّ العظيمَ في حياة الأبناء، فإذا هو يردّد مع المتنبى:

فلو كـانَ النِّساءُ كمثلِ هَـذِي
لفُضِّلَتِ النِّساءُ على الرجالِ
فما التأنيثُ لاسم الشَّمس عَيبٌ
ولا الـتـذكـيـرُ فـخـرٌ لِـلْـهـلاَلِ

إن أُمَّهُ نَموذَجٌ صالحٌ للأمهات الفُضْلَيَات اللاتى كان لهن أكبرُ الأَثَر في حياةِ أبنائهن.

لقد تَرَمَّلت بعد موت أبيه، وتفرغت لتربيته على العلم والأخلاق.. كما ترملت أم الإمام أحمد بن حنبل!

وكان لها ما أرادت..

- فإذا هو يحفظُ القرآنَ الكريم.
- ويَرْوِى السنُّةَ المطَهَّرة..
- ويُتْقِنُ لُغَتَنا الجميلة، ويَقفُ على أسرارِها!
- ويَحْمِلُ راية الفِقْهِ الإسلاميّ، ويجلسُ للإفتاء!
- ويُصْبحُ عالمَ قريش الذي يملأُ الأرض علما..
- ويتفوّقُ في الفُروسيّة والرَّمْى!

لقد تخطّى كُلَّ الصِّعابِ، وتحدّى كلّ العوائقِ في عزمٍ وإصرارٍ على بُلوغِ الهدف، واستكمالِ فضائلِ النفسِ.

وها هو ذا بعد أن خاض «التَّجربةَ» بنجاحٍ يضع أمام الراغبين في «العلم» علاماتٍ مُضيئةً على الطريق فيقول:

- من تعلّم العلِمَ عظُمت قيمتُه!
- ومَن تكلّم في **الفِقْه** نما قَدْرُه!
- ومَن كتبَ **الحديثَ** قَويتْ حُجّتُه!
- ومن نظر في **اللُّغَةِ** رَقّ طَبْعُه!
- ومن نظر في **الحسابِ** جَزُلَ رأيُه!
- ومن لّم **يَصُنْ** نفسَه لم ينفعْه علمُه!

وقديما قال شاعرنا:

صُنْتُ نَفْسِي عَمّا يُدَنِّسُ نَفْسِي

إن الشافعيَّ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– لم ينسَ كلماتِ سيخهِ الإمامِ مالكٍ، في أولِ لقاءٍ بينهما، عندما رحل إليه بمدينةِ الرسولِ ﷺ:

«**يا مُحَمدُ؛ اتقِ الله، واجْتَنِبِ المعاصيَ! فإنه سوفَ يكونُ لك شأنٌ من الشَّأْنِ!**».

وقد كان!، وتحقّقَت فِراسَةُ «مالكٍ» في تلميذهِ «الشافعيّ!».

فتعال إلى «الشافعي» نُتابع خُطُواتِه على طريق العم.

فمن دَرَى أخبارَ مَن قبَله أضافَ أعمارًا إلى عُمْره

محمد إبراهيم سليم

رحلةُ الصَّيْفِ!

لإيلافِ قُرَيْشٍ جعلَ الله لها رِحْلَتَيْن:

• رحلةَ الشتاءِ إلى اليمن.

• ورحلَة الصيفِ إلى الشّامِ.

لِيعودَ تُجَّارُ مكةَ منهما بالخيرِ الوفير والرِّبح العظيم..

فَيقوموا بواجبهِم نحوَ الطائفين، والعاكفين..

مِن زُوّارِ البيتِ الحرام؛ وحَقٌّ على المزُورِ أن يُكْرِمَ زائرَهُ؛

وكان «هَاشِمُ بنُ عبدِ مَناف» أبو عبدِ المطلب جَدِّ النبيَ ﷺ على رأسِ هاتين الرِّحْلَتين؛ صيفًا وشتاء!

ويَشَاءُ الله أن يَلْقَى هاشمٌ رَبّه في رحلة صيف.. إلى الشام، بمدينة غَزّة، وهو يقودُ قافلةَ قُرَيْشٍ في الجاهلية!

فَيُدْفَنَ بها، وتُسَمّى منذ ذلك الحين: «غَزّةَ هاشِم».

وفي «غَزَّةِ هاشِمٍ من أرضِ فَلِسْطِينَ العربية» وُلِد محمدُ بنُ إدريسَ ابن شافع عام 150 هـ.

مات إمام وَوُلِدَ إمام

يقولُ المؤرخون: إن العامَ الذى وُلد فيه «الشافعيُّ»، مات فيه «الإمام أبو حنيفة النعمان!».

ومن أجل هذا نراهم يقولون:

«في عام 150 هـ **مات إمامٌ، وَوُلد إمامٌ**».

ولله في خَلْقِه شُئُونٌ!

لقد أراد الله – سُبْحانَه وتعالى – أن تَظَلّ رايةُ الفقْه مرفوعةً، يَتلَقّاهَا إمامٌ بعد إمام حتى تكتَمِلَ قواعدُه وأصولُه، وأبوابُه وفصولُه!. ويُصبحَ عِلْمًا له أئمةٌ وللأئمة أتباع يحملون الراية من بعدهم!

فبعد وفاةِ الإمام «**أبي حنيفةَ النُّعمان**» بالعراق – أول الأئمة ظُهورًا، لم تسقط الرايةُ، ولم تتوقفْ الجهودُ!؛ فقد حَمَلها من بعِده تلاميذهُ: محمد بن الحسن، وأبو يوسف، وزُفَر..ليكون للشافعى لقاء معهم بالعراق!

بينما كان بالمدينة المنوَّرة – ثاني الأئمة ظُهورًا يحمل لواء الفقه الإسلامى، ويُفتى الناسَ فيما يُجهلون الحكم فيه وهو: «**الإمامُ مالكُ ابنُ أَنَسٍ**» الذى قيل فيه: «**لا يُفْتَى ومالكٌ بالمدينة**»!!

ويشاءُ الله أن يتَتَلْمَذ «**الشافعىُّ**» ثالث الأئمة ظهورًا على «**مالك**»، ويُبارِكَ مالكٌ خُطاه، ويرى فيه أهلًا لحمل الراية من بعده! وهكذا أراد الله! ويشاء الله أن يتتلمذ الإمام «**أحمد بن حنبل**» رابعُ الأئمة ظهورًا على الشافعى! ثالثهم ظهورا، فياله من عصر عجيب!! عصر الأئمة حاملى لواء الفقه! فتعالَ معى إلى «**محمد بن إدريس الشافعيّ**» عالم قريش!!

مُعَايَشَةُ الصالحين!

ليس هناك أجملُ من مُعايَشةِ الصالحين، وذَوِى القُربى..

أولئك الذين ضَرَبُوا لنا أعظمَ الامثلة في طَلَبِ العِلْمِ، واكتساب الفَضَائل، والتحلّى بمكارم الأخلاقِ، وصيانة النفسِ التى كرّمها الله عما يَشينُها!

فبمثلِ هَذا العلمِ، وتلك الأخلاقِ أصبحوا لنا معالمَ على الطريق!

ولا عجبَ، فقد حملوا «**رايةَ السنَّةِ والقرآن**»، وأناروا للناسِ من جميع الأجناسِ طريق الحلال والحرام، وصدق فيهم قولُ الله تعالى: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ**﴾ [الأنعام: 90) فتعال إلى «**محمد ابن إدريس**» ذلك اليتيم الذي ملأ طِباق الأرض علمًا!!

وهيا نرحل إلى «**غَزّةَ**» حيث ولم «الإمام» لِنُتَابعَ «رحلاتِه» في طلب العلم وخِدمة الفِقهِ الإسلامى بين مكة، والبادية، والمدينة، والعراقِ، واليمن، والشام، ومصرَ التى رحل إليها أخيرا، ومكث بها سنوات حتى لقى ربه سنة 204 هـ وكأنى بك -بعد أن تُعايِشَه- تقول: هذه هى الحياة!!

تاريخ لا يُنْسَى: (150 - 204 هـ)

ما بينَ هذين التاريخين أربعةٌ وخمسون عاما عاشها إمامنا الشافعى.

ويُعَدّ «الشافعىُّ» أقصَرَ الأشمة الأربعة عُمْرًا!

ومع هذا فقد بارك الله له في هذا العمر القصير حتى ملأ طِباق الأرضِ علمًا!

ويقول المترجمون له: إنه محمدٌ بنُ إدريسَ بن العباسِ بن عثمانَ بن شافعِ بن السائب بن عبيدِ بن عبد يزيدَ بن هاشمِ بن المطّلب بن عبد مناف بن قُصَيّ بن كلاب بن مرةَ بن كعب بن لؤى بن غالب. وإلى جده شافع ينسب، فقيل: «الشافعي».

وهو «الإمامُ، عالمُ العصر، ناصرُ الحديث، فقيهُ المِلّة» كما وصفه الإمام الذهبى.

وهو أبو عبد الله القُرشي، ثم المطَّلبيّ، الشافعيّ، المكّيّ، الغّزِّيّ المولد.

نسيبُ رسول الله (ﷺ)، وابن عمه، فالمطَّلِبُ هو أخو هاشم والد عبد المطلب.

فأما جَدُّه السائبُ المطَّلبِي، فكان من كبراء من حضروا بدرا مع الجاهلية. فأُسِرَ يومئذ، وكان - كما يقول الإمام الذهبي - يُشَبّه بالنبى ﷺ.

أما والدتهن فهى «الشِّفَاءُ» بنتُ أرقمَ بن نضلة.

ونضلةُ: هو أخو عبد المطلب جد النبى ﷺ.

فيقال: إنه فدى نفسه، ثم أسلم. وأخوال الشافعى من «الأزد».

وأمه حفيدةُ أخت فاطمةَ بنتِ أسدٍ أُمِّ الإمام على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولهذا كان الإمام الشافعى يقول:

«عليّ بن أبي طالب ابن عمى، وابن خالتي».

إنه قرشى الأبوين.. وهو من ذوى القُربَى!

رضى الله عنه، ونفعنا بعلمه وفقهه!

الرحلة إلى غزة!

ذات يومٍ خرج «إدريسُ» والدُ الشافعيِّ من «**مكة المكرمة**» إلى «**المدينةِ المنورةِ**» في طلبِ الرزقِ الحلالِ!

ولكنه لم يجدْ ما سعى إليه، فقد ظلَّ الحالُ على ما كان عليه!

وقاده الأملُ إلى «**الشامِ**» حتى استقرّ به المُقامُ في «**غزةَ**»! وفي «**غزة هاشم**» أنعم الله على إدريسَ بمولود سماه: «**محمدًا**» رجاءَ أن يُحْمدَ في الأرض، ويكون له شأنٌ، إن أمّه امرأة فاضلةٌ؛ تحفظُ القرآنَ وبعضَ الحديث..

وتوَدُّ مِن كلِّ قلبِها أن يكونَ لابنها «محمدٍ» نصيبٌ من العلم!

وتتمنى أن تراهُ ذاتَ يوم، وقد حملَ راية القرآن والحديث!

وبينما هى تحلُم بمستقبلٍ عظيم لابنها محمد إذا بوالده «إدريس» يُهاجمه «مَرضُ الموت»، فيُسلم الرُّوحَ إلى بارئها لتكونَ مع الرفيق الأعلى على مع الأنبياء والشهداء والصالحين، وحَسُن أولئك رفيقا!!

وترضى الأُمُّ بقضاءِ الله!!

وتعودُ لتفكرَ من جديد في أمر هذا اليتم الغريب!

كيف تواجهُ ذلك الثالوث الذي اجتمع عليها:

الغُربة.. واليُتم.. والفقر؟!!

وسرعانَ ما تذكرت ما يُسَليها..

لقد تذكرت جَدّتَها هاجرَ.. أُمَّ إسماعيلَ - عليه السلام - حين تركها زوجُها إبراهيمُ -عليه السلام - هى ووحيدَها إسماعيلَ بجوار البيت الحرام وعاد من حيث أتى ليقومَ بالدعوة إلى الله!

وهى تقول له عند الوداع:

«**آلله أمرَك بهذا؟!.. إن كان قد أمرك.. فلن يُضَيِّعَنَا!!**».

وهتف بالشِّفَاءِ - أمِّ الشافعى - هاتف:

إذا كان «إدريسُ» قد مات فإن الله حَيٌّ لا يموت!

إنّ ربَّك يا «**أُمّ مُحَمّدِ بنِ إدريسَ**» سوف يرعى ولدَك، وسوفَ يكونُ له شأنٌ من الشأن!

وعاد الأملُ إلى قلبِها من جديد!

فلْتَرحَلْ من «**غزةَ**» إلى بلدٍ آخر.. بعيدًا عن الحزن وآلام الفراق!، وذكريات الموت!،.. إن الله موجودٌ، وإنها ليست وحدها، وإنما تحف بها العناية الإلية حي سارت، وتحرسها المشيئة حيث حلت.

رحلة العودة!

وانتقلت الأمُّ بوليدها من «**غَزةَ**» إلى «**عَسْقَلانَ**» وكانت عسقلانُ آنذاك عروسَ الشام.. خيرها دافق.. والعيشُ بها رائق.. يُرابطَ بها جيشُ المسلمين..

ولكن الحياةَ لم تَرُقْ لها!

وهنا اتخذت الأمّ «**قرارَها الحكيم**» بالعَوْدَرِ بوليدِها «**محمدٍ**» إلى مكةَ بلدِ آبائه وأعمامِم وأجدادِه!!

فهناك في مكةَ يُتاحُ لمحمدٍ أن يَنشَأ بين أهلِه وأقربائه!

وسوف يُتاحُ له -أيضًا- أن يَحْصلَ على نصيبهِ من المال، وهو «سَهمُ ذَوِى القُربى».

وهو وإن يكُن قليلًا لكنه على كل حال يُغْنى من جوع.. وأحسنُ من لا شىء!

وحَمَلت الأمُّ وليدَها وأمتعِتَها إلى البلد الحرام، فمن دخلَه كان آمنًا!، ولها في جدتها هاجر أسوةٌ حسنة!

وسعدت الأمُّ بوجودِ «**محمد**» بين أهلهِ وذوى قرباه، ولم تستطعْ خشُونةُ العيش أن تُنسيهَا ذلك الشرفَ الرفيع الذي تَنْتَمى إليه هى ووليدُها!!

الطريق إلى الغمامة يبدأ بخُطْوة إلى «الكُتّاب»

لم يكن طريقُ الشافعيِّ إلى «**العلم والتعليم**» مفروشًا بالورود!

فلم يُتَحْ لَهُ ما يُتاحُ لغيرِه؛ فَقَدِ اجتمَع عليه الفقرُ واليُتمُ!

لقد ذاق مرارةَ اليُتْم مُنذ ولادتِه!

وعاش حياةَ الحرمانِ مُنذ نعومةِ أظفارِه حتى أصبح كبيرًا.

لكن إصرارَ «**الأم**» على تعليم ابنها تغلّب على كلِّ الصِّعاب!

إنها تحفظُ القرآنَ والحديثَ!!

وتريدُ أن يتعلمَ ابنُها على أيدى الكبار ليُصبحَ مثلَهم!

إن العلمَ هو البابُ الرئيسيُّ إلى التفوُّقِ.. والمجد والرِّفعة!! وبابُه مفتوح على مِصْرَاعَيْه للجميع.. فقيرِهم وغنيهم!

لقد كانت أولُ كلمة في كتاب الله هي: «**اقرأ**» فليقرأ محمدٌ بنُ إدريسَ أوّلًا القرآنَ استجابةً للأمر الإلهيّ.. إن القراءة هى مفتاحُ العلومِ كلِّها.. كان هذا رأيَ الأَرْمَلَةِ الصغيرةِ!

إن العلمَ حقّا - كان وما يزال - الطريق إلى التَّفَوُّق والسيادة، والعيش الآمن!... إنه مِفتاحُ الصناعةِ.. والزراعة.. والتجارة!

فلا بُدّ من العم إذن لكل من أراد الحياةَ عزيزةً كريمة!!

فلْيَخْطُ محمدٌ إليه الخُطوةَ الأُولى..

ولْتَضَعْ أمُّه الفاضلةُ أقدامَهُ على الطريق... ولْيَجِدْ محمدٌ نفسَه على أعتابِ «**الكُتَّاب**» بين يدَيْ «**مُقرِئ**» يقرأ على مسامِعِه ما تَيَسَّر من قِصار السور، ومُحَمَّدٌ يُردّدُ وراءَه!

يا بُشْرَى!

هذا محمد بن إدريس قد وضع قدميه على أول الطريق!!

ها هو ذا في «**الكُتّاب**»!، فلْتَسْعَد الأم بوليدها!

لكنّ الحياة لا تَخْلُو من مُشكلاتٍ!

.. ولذةُ العيشِ أن تُصادِفَك مُشكلاتٌ، وتَهُبَّ لمواجهتِها، والتصدّى لحَلّها، والتَّغَلُّبِ عليها دونَ كَللٍ أو مَلَل حتى يَتَحققَ هدفُك!

وفي «**الكُتّاب**» لم تجدِ الأمُّ ما تدفعُه للمُعَلِّم أولًا بأوّل فكيف السبيلُ؟ وما العملُ؟

لقد لاحظَتْ أن مُعَلّمَه يُقَصّر في تعليمِ صَبِيّها، بل يكادُ يُهمِلُه لعجزِها عن دفع نفقاتِ تعليمه المتواضعة!

ولكن «محمدا» نابَ عن أمّه في التغلُّبِ على هذه المشكلة!

لقد كان يتمتعُ بذاكرةٍ حافظةٍ لاقطة!!

فهو حريصٌ على التقاطِ كلِّ كلمةٍ من فمِ مُعَلِّمه..

وها هوذا أولُ المسارعين إلى حِفظِ ما يُلقيه المعلم عليهم، ويُرَدّدُه على مَسَامِعِهم!

حتى إذا قام المعلمُ وترك الصبِّيْانَ وقف الشافعيُّ مكانَه، وقام بدَوْره يُردّد على مسامع الصِّبيان كلَّ كلمةٍ.. وكلّ آية.. وكلّ سورةٍ في ترتيل جميل، وأداءٍ بديع!

ونظر المعلمُ فإذا هذا الصغيرُ يكفيه إذا غاب.. ويقوم مقامه أحيانا إذا تعب!

إنه وهو الصغير يقوم بدور «**الأستاذِ المساعدِ**» في عصرنا!!

وفكر المعلمُ وقَدَّر!!

إن ما يقومُ به «**محمدُ بنُ إدريسَ**» عملٌ كبير.. أكبرُ بكثير من الأجر الذي كان مُقَرَّرًا أن يَحْصُلَ عليه من أمِّه مقابلَ تعليمِه!

فما لَهُ لا يُعفيه من ذلك الأجرِ، ويُريحُ قلبَ الأمِّ مقابلَ قيامِ ابنها بهذه المهمة؟!

وتمتّع محمدٌ بالإعفاء نظرًا لنُبُوغِه، وتَفَوُّقِه!

وظلّ يتمتعُ بهذا الإعفاء حتى أتمَّ القرآن كُلّه، وهو ابنُ سبعِ سَنَوات!

ولا تعجب!.. إنها رعاية الله، وإرادته!

ويُحدّثنا «**الإمامُ الشافعي**» عن تلك المرحلةِ، فيقول:

«**كنت يتيمًا في حِجْر أمى.. (أي في كَنَفِها ورعايتها).**

ولم يكن لها ما تعطيه للمعلم!!

وكان المعلمُ قد رَضِيَ منى أن أقومَ على الصِّبيان إذا غاب!

وأخففَ عنه إذا تعِبَ»! لقد أتم تجويدَ القرآن وأحسنَ ترتيلَه..

وعليه أن يَخْطُوَ خُطوةً أخرى تتبعها خُطُوات، ليُلِمّ بمعانيه وتفسيره بما يُلائم سِنَّهُ.. وليُصبحَ للنس إمامًا، وليكونَ بينهم عالمَ العصر.. ناصرَ السنة.. فقيهَ المِلَّة، ولكن أنَّى له ذلك؟!

إن «**المسجدَ الحرامَ**» بمكة فيه الكثيرون ممَّن يقومون بهذه المُهِمَّةِ.. وكلٌّ له «حَلْقةٌ».. وله طلابٌ يَسْعَوْن إليه، ويُحيطون به!

وتختار له أُمُّه أعلَمَهم، وأفضلَهم حتى إذا بلغَ «الثالثةَ عشرةَ» كان قد أتقن القرآن حفظا، وترتيلا، وتجويدا، ووعيا بما يناسبُ سِنّه من معانيه!

لقد رعاه الله، وأنبته نباتًا حسنا!

إن الطريقَ ما يزالُ طويلًا..

لكن الله سبحانه وتعالى يرعاه.. ويُسَدّد خُطَاهُ على الطريق!

لقد وهبه الله من حُسْنِ الصوت، وعُذوبته ما حَبَّبَه إلى سامعيه، وجعلهم يبكون في خُشوعٍ لَله وخُضوعٍ، وكلٌّ أملهم أن يُتاحَ لهم سماعُ القرآن منه!

مَنْهُومانِ لا يَشْبَعَان:

■ طالب علم! ■ وطالب مال!

خُطُواتٌ على طريق العلم!

إن «**محمدًا**»اليتمَ يَرْقَى درجات السُّلَّمِ التعليمى آنذاك في تمكنٍ واقتدارٍ..

وقد قال السابقون: «**منْهُومَان**[1] **لايشْبَعَانِ:**

طالبُ علم، وطالبُ مال!»

وكان الشافعيُّ طالبَ علمٍ، فلا عجبَ إذا اشتدَّ نَهَمُه إليه وزاد إقبالُه عليه! ورغبته فيه!

ومن اعتقد أنه عَلِمَ فقد جَهِلَ!

كانت هذه المعانى تجول في نفسه كلما اجتاز مَرحلةً أو خَطَا خُطْوَةً على طريق العلم.. غرستها في نفسه أمه الفاضلة!

وكأنما كان شعاره:

العلمُ يَـرْفَـعُ بيتًا لا عِـمـادَ له
والجهلُ يهدمُ بيت المجد والشَّرَف!

ومن أجل هذا رأيناه كلما خَطا خُطْوة واجتازها بنجاح على طريق العلم، قال في نفسه: وماذا بعد؟!.. وهَلْ مِن مَزِيد؟!

لقد كانت ثقافةُ ذلك العصر تتمثلُ في حِفظ القرآن الكريم وطلبِ الحديثِ النبويِّ الشريفَ!

(1) المنهوم: من به نهم، وهو الإفراط في الشهوة أو الرغبة فيه.

وليس بعد القرآن إلا الحديثُ.. حديثُ رسول الله ﷺ فقد ترك لنا النبيﷺ ما إن تَمَسّكْنَا به.. لن نضِلّ: كتابَ الله.. وسُنَّتَه ﷺ.

ولقد أجاد «**محمد**» ما يتعلق بكتاب الله..

فلْيَتَّجهْ إلى حديث رسول الله ﷺ.. ولْيَلْزَم «**حَلْقاتِ أهلِ الحديث**» ليدوَّنَ ما يَسْتمعُه منهم، وليْرِونَه عنهم!

ووجد الشافعيُّ في الحصولِ على «**ورقِ الكتابة**» مَشَقّةً كبيرةً!

إنه يَحْتَاجُ إلى كثير من الورقِ ليُدَوِّنَ ما يسْمعُه من حديثِ رسول اللهﷺ.. لكنّ الورق غالٍ!، ولا طَاقةَ له بشرائه!

فكيف يتغلّبُ على هذه المشكلة؟

يقولون: «**إن الحاجَة تَفْتِقُ الحيلة!!**» **فيكف احتال محمد للتغلب على مشكلة الورق؟!**

لقد فكر محمد في الذهاب إلى «الديوان» للحصول على الأوراق المهملة، التى يمكن أن يُكتبَ على ظهرها، إلى جانب «**العظام العريضة**» وغيرها! ومع هذا فقد كان غيابُ الورق يعَنْى مُشكلةً تحولُ دون تَفَوّقه، وتحقيق طُموحاته!

فلْيَعْتمد محمدٌ على الحفظ، ولْيُدرِّب ذاكرتَه عليه.. وكان له ما أراد، فكل شيء مُعَدّ إذا كانت عقولُنا كذلك! وهكذا أصبح محمدٌ يحفظُ ما يُلقىَ عليه من حديثِ رسول الله ﷺ وكأنه جهازُ تسجيل!! لكنه لاحظ -وهو في مكة- أن هناك كلماتٍ وتعبيراتٍ تسربت إلى اللغة العربية.. لغة القرآنِ على ألسنةِ المسلمين الجدُد من الموالى (**غير العرب**)، حينما اختلط العربُ بغيرِهم من أبناء البلاد المفتوحة فلم تعد لغة قريش.. ولم يَعُدْ لسانها.. هو اللسانَ العربى المُبين بعد اختلاطِ العربِ بغيرهم!

إنه يُحسُّ في قرارةِ نفسِه أنه في حاجة ماسّةٍ إلى ثروة لُغَويّة تُعينُه على مَزيد من فهْم القرآن، ومعرفة أسرار التراكيب في القرآن الكريم، والحديث النبويّ الشريف! وهما في أعلى مَرْتَبةٍ من البيان!

نصيحةٌ صَادَفَتْ هوًى في نفسه

كان الشافعيُّ في صابه يلتقطُ الآراءَ والأفكار من كلِّ نَبْع!

إنه لم يتركْ فرصةً للتَّزَوُّدِ بالعلم والمعرفة إلا وانتهزها، وبادرَ باقتناصها!

وإنه ليذكرُ ذلك اليوم الذي رأى فيه «**إمام مصرَ**» وعالمها: «الليثَ بنَ سعد» لأول مرة..

وهو الفقيهُ الكبير -آنذاك- الذي يتحلّق حولَه الطلابُ في المسجد الحرام كلما جاء حاجّا أو مُعْتَمرا..

ففي احدى حَلْقات «**اللّيث**» إلى جوار مقام إبراهيم -عليه السلام- نصح مستمعيه، وراودَ حَلْقته - والشافعيّ من بينهم:

- أن يُتقنوا اللغةَ العربيةَ لغةَ القرآن!
- وأن يُحيطوا علما بفُنون آدابها..
- وأن يَحفظوا الشعرَ الذى سبق نزولَ القرآن الكريم وعاَصَره..

ليُعينهم على فهم القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف!! فالشعر- كما يقولون - «**ديوانُ العرب!**».

ولكن: كيف الطريقُ إلى تحقيق هذه النصائح الغالية؟ وأَنّى لهم ذلك؟

لم يتركْهم «الإمام الليث» حَيارَى.. بل رسَمَ لهم الطريقَ ووضعَ أقدامَهُم عليه!، قائلا:

أبنائى: «هيا اخرجوا إلى البادية[1].. باديةِ بنى هُذيْل».

إن الباديةَ مازالت تحتفظُ بنقاء اللغةِ وصَفَائها..

هناك الأدبُ.. وهناك الشعرُ.. وهناك اللغةُ..

وعند «قبيلة هذيل» الخبرُ اليقينُ، فهم أفصحُ العَرب!

(1) البادية: فضاء واسع فيه المرعى والماء. والنسبة إليها بدوى على غير قياس.

إن «شِعْر الهُذَلِيِّين» عامرٌ بكُنوزِ اللغةِ.. ومن أراد الثروة اللُّغَويّة فعليه بمُعَايشة هُذَيل!.. هكذا قال لَهم الإمام!!

• إن الإمامَ الليثَ - إمامَ مِصرَ - يحفظُ أشعارَ الهذَليِّين.

ويقول عنه الشافعي:

«كان الليثُ أفقه من مالك غيرَ أن أصحابَه ضيَّعُوه!».

ضيعوا فقهه، فلم يُسَجِّلوه، ولم يدونوه بعد وفاته! فضاع مذهبه واندثر!!

هيا إلى البادية!

وخرج الفتى «محمدٌ بنُ إدريسَ الشافعيّ» في أول رحلة إلى بادية عَربية قريبة من مكة هى «بادية هُذَيْل!» فمازالت لغتُها صافيةً لم يفسِدْها «**دَخيل**» وعاش فى مَضَاربِ خيامهم كأنما هو واحد منهم..

وكأنما كان في بعثة داخلية لدراسة اللغة العربية وأسرارها!

وللصحراء روعةٌ أيُّ روعة.. وجمال أيُّ جمال!!

إنها تبعثُ في نفوس أهلِها وعُشّاقها الرجولةَ الكاملة.. والإيمانَ الصادِقَ.. والعبقريةَ التامة..

وإن شئتَ دليلًا على ذلك فعليك بأبطال العرب في الجاهلية والإسلام!

فإن أبيت إلا الطريق السهلَ، والقولَ الفصلَ، والحجةَ البالغة والمعجزةَ الدامغة فعليك بسيرة نبيّ الهجرة عليه الصلاة والسلام!

لقد كان الشافعى على يقين ممّا تحقِّقُه له هذه الرحلة. طوال عَشْرِ سَنوات قضاها في رُفْقَةِ «**هذيل**» يدرس اللغة العربيةَ وآدابَها..

ويحفظ الشعر ويَرويه عنهم.. حتى إن «الأَصمَعيّ» وهو شيخ اللغويين قال وهو في أوج شهرته: صححْت أشعار الهذليِّين على فتى من فريش،

يقال له محمد بن إدريس، وإلى جانب هذا الاتجاه العِلْمِيّ الأدبي، كان هناك جانبٌ عمَلِيّ رياضيّ أجادَه وأتقنه!

لقد تعلم منهم «**الرَماية**»، فكان يصب عشرةً من عشرة! وتعلم منهم «**الفروسيةَ**» وبَرَع فيها وتفوق حتى كان يأخذ بأذن الفرس، وهو يجرى فيثبت عليه في براعةٍ وتمكنٍ واقتدار!

إنه الإصرارُ على استكمال فضائلِ النفس.. فلا شك أن المؤمنَ القويّ خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضَعيف.. ومما وصف به القرآنُ الكريمُ «طالوتَ» ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: 247] ليكون مَلِكًا يقود الجيش إلى النصر! وإمامُنا الشافعى يقوم بتحقيق تنمية كاملة شاملة! ليكون إماما يقود الأمة إلى ما ينفعها في دينها ودنياها! وهكذا التقت إرادة الأم الفاضلة وابنها «محمد الشافعي» على استكمال فضائل النفس البشرية، وإعدادها، وتكوينها والتزود بكل ما يُنَمّيها حتى تصيرَ قائدةً رائدة!

ولم يبخل بالوقت، فقد كان على يقينٍ من صحة القولِ المأثور: «**ما ضاعَ مِنْ وَقْتِك ما نَفَعَك**».

ويحدثنا «الإمامُ الشافعي» عن هذه المرحلة قائلا: كانت همّتى في شيئين: (1) الرّمي. (2) والعِلْم.

فصرت في الرَّمْى أُصيبُ عَشَرةً من عَشَرة!

ثم سكت!

فقال أحد الحاضرين: أنتَ -والله- في العِلم أكثرُ منك في الرمى! لقد حقق طموحاتِه وأُمنياتِه التي رحل إلى هُذَيْل من أجلها! وكأنما كان شعاره: **إنَ لِبَدنَكِ عليك حقّا، وإن لربّك عليك حقًا؛ فأعط كل ذى حقَّ حقَّه!!**

وها هو ذا يعود من رحلته هذه فارسًا متفوقا في الكرِّ والفرّ!!

عاد منها وقد أصبح في عِداد «**الرُّماة**» الذين لهم شأن في الحروب! عاد منها متحدثًا بارعًا، يملكُ ناصيةَ اللغةِ، ويُحيط بأسرارها ومواطنِ جمالها!

وها هو ذا قد اتسع صدْرُهُ - إلى جانب القرآنِ الكريم، والحديث النبويِّ الشريف - لتلك الثروة الضخمة من الشعر، والأدب، والأخبار، واللغة!

لقد كان على يقين من أن «**العلم في الصُّدورِ لا في السطور**» فحوى صَدرُه كل ما رحلَ إليه طوالَ عَشْرِ سَنَوَاتٍ!!

عَوْدٌ على بَدْءٍ

وعاد الشافعى من «**بادية هُذَيْل**» إلى مكةَ... ليسْتَكمل فَضَائلَ النفس!

عاد إلى حَلقاتِ شُيوخه في المسجد الحرام..

عاد إلى أهل الحديث... وإلى المفسرين.. وإلى الفقهاء وهو أَقْدَرُ على الفَهم، وتلقِّى العِلْم على الكبار!

إنه مازال يذكر ذلك اليوم الذي توقف فيه عند قول الله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا**﴾ [الشمس: 9، 10]، وحار في فهم كلمة «**دَسّاها**»!

وطاف آنئذ على شُيُوخ الحَلقات.. وسأل كل من لَقيه.. لكنه لم يَظْفَر بجوابٍ شافٍ!!

حتى أرشدته «أمه» إلى «**مُقاتل بن سليمان**».

الذي كان عنده الخبرُ اليقين!، ولا عجب فهو شيخ المفسرين!

فضل الأم

والشافعيّ في «رِحلةِ البحث» لا يَنْسى فضلَ أُمِّه عليه أولًا وأخيرا!!

وإنْ تعْجَبْ فعَجَبٌ لهذا التوافق الغريب بين دَوْر الأم في حياةِ ثلاثةٍ من أئمةِ الفقهِ العظِام.

فقد كان للأم في حياة «**الإمام: أبي حنيفةَ النعمان**» دورُها الرائد، وكان للأم في حياة «**الإمام: أحمد بن حنبل**» دورها الرائد أيضا وها هو ذا «**الإمام: محمد بن إدريس الشافعي**» يستشيرها ويسألها النصيحة!!، وهى ترعاه منذ لقى أبوه ربه، وفارق الدنيا!، إنها لتُشير عليه بأسماء الشيوخ أهلِ العلم والفُتْيا ولا عجب.. فقد كانت حافظةُ للقرآن والحديث.. بصيَرةً بأحكام الشريعة: وليس أدلّ على ذلك مما يذكره الرُّواة عنها:

لقد ذكروا أنها رَدَّت «**قاضيَ مكة**»، حين استدعاها للشهادة هى.. وامرأة أخرى، وأراد أن يُفرِّقَ بينهما بحيث تشهدُ كُلّ واحدةٍ في «**غيابِ الأخرى!**»، ولا تسمع شهادتها!! وهنا اعترضت «**أمُّ الشافعي**» على القاضى، وطلبت منه أن تشهدَ كلُّ واحدة منهما «أمام الأخري»، وألّا يُفرِق بينهما!!

وذكَّرتْه بالآية الكريمة من سورة البقرة.. «آية الدَّيْن» وفيها يقول الله تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: 282].

ولهذا كان الشافعى -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يستمع إلى نصائحها وهى التى وجهته إلى فقه «**الإمام علي بن أبى طالب**».

ونصحتْه أن يَلْتَمسه من تلاميذ «**ابن عباس**» وتلاميذِ «**جعفرِ الصادق**»!

ولقد كان «**مُقاتلُ بنُ سُليمان**» أعلاهم شأنا، وأبصرهم بالقرآنِ وتفسيره، وبالحديث والفقهِ!

وعندما دلّته أمه عليه بعد ما حار في فهم كلمة «**دسَّاها**» قال له: دَسّاها من لغة السودان، ومعناها: أغواها!! ألا ما أعظمَ فضلَ الأم في توجيه أبنائها!

وما أخطر دورَ الأمّهاتِ في صنعِ مستقبلِ الأبناء!!

آنَ لكَ أن تُفْتِيَ!!

بعد هذه الجهود المتُواصِلَة في طلب العم، والحديث، والتفسير واللغة، والشعر، وأسرار البيان، ولطائف الأدب، أصبح الشافعى مُهَيّأ للإفتاء على الرغم من صِغَر سنه!

فلا عجبَ إذا رأينا شيخه الأول مفتى مكة، وهو «**مُسْلم بن خالد الزَّنجي**» يأذنُ له بالإفتاء، وهو دون العشرين من عمره، يقول له:

«أفت يا أبا عبد الله، فقد آن لك أن تُفْتِيَ»

ولكنّ الشافعيّ تهيَّب الموقف!

وأين هو من أولئك الشيوخِ الكِبار الذين يجلسون للإفتاء؟!

إنه لم يزل في سن أبنائهم!

ومازال في برنامج «**التأهيل العلمي**» الكثيرُ و الكثيرُ!! ولن يسمحَ لنفسه بالجلوس للإفتاء حتى يحصلَ على كُلّ ما يريدُ!.. إنه لم يَحْصُل بعدُ على ما يريده من «**فقه المدينة**» حيث ينبثقُ نورُ علم إمام دار الهجرة.. «**الإمام مالك بن أنس**» ولمم يتزوَّدْ بعدُ بالقدر الكافى من «**فقه العراق**» حيث تتردُ في جنبات «**مسجد الكوفة**» آراءُ الإمام الراحلِ «**أبى حنيفةَ النُّعمان**»..

وفي بغدادَ تلاميذُ أبي حنيفة وأصحَابُه: أبو يوسف قاضى القضاة.

ومحمد بن الحسن.. وزُفر.. يحملون لواء «**إمام أهل الرأي**»، ويُضيفون إلى فقهه وتراثه!

أنّ به نَهَمًا إلى الفِقْه!!

ومازال أمامَه الكثيرُ مما تجبُ معرفته والاطلاعُ عليه، والإحاطُة به!

فهناك «**فقه الإمام الأَوْزاعِيّ**» بالشام.

وهناك «**فقه الإمام الليث بمصر**»، ذلك الفقه الذى جاء وسطا بين «**أهل الرأى بالعراق**»، و«**أهل الحديث بالمدينة**».

قرار حكيم

وقرر الشافعيُّ أن يرحلَ في «**طلب الفِقه**» من كل مَدَارسه، كما رحلَ من قبلُ يلتمسُ الفُصْحَى! واستأذن «أُمَّه» أن يرحلَ إلى «المدينةِ» ليدرسَ على «**الإمام مالك**»، ولِيُعَايِشَهُ كما عايش قبيلة هُذَيْل وكان «الإمامُ مالك» قد ظفر بحبه وتقديره يوم أن جاء إلى المسجد الحرام، وألقى بعضَ الدروس!

وهام به الشافعيّ.. وودّ من كل قَلْبِه أن ينفردَ به ويحُاورَه! في لقاءٍ خاص!

لقد أخذتْه هيبةُ «الإمام مالك»، وبهرَه حسنُ معرفته بالحديث!

لكن الشافعيَّ لا تكفيه تلكَ الدَّروسُ العامّةُ التى تباح للجميع!

إنه يريدُ أن يَلْزَمَ إمامَهُ.. يتَلقَّى عنه كلَّ علمه.. . يسأله .. ويُحاوره!، وينفرد به!

ومالك في «حَلْقاتِه» له تقليد في الدرس، فهو لا يأذَن بالحوار.. ومصيرُ من يحاوره.. أو يقطعُ عليه حديثه الطردُ من حَلْقته!.. إنه يروى حديث رسول الله، ويعلمهُمْ فقه الحديث! وقد أمر الله الذين آمنوا أن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبى.. وأن لا يقدموا قولا أو فعلا بين يدى الله ورسوله.. إن الإمام مالكا قد تفرغ لعلم حديث رسول الله ﷺ وعلم حديث الرسول له احترامه ولا صوت يعلو على صوتِه!

وفكّر الشافعيّ كثيرا حتى وجَدَ الحلّ!

وقرر أن يُعِدَّ نفسَه لذاكَ اللقاءِ المنتظَر!

تُرى ماذا عَمِلَ؟ وكيف صاحبَه التوفيقُ حتى نجحت خُطَّتُه في الحصول عل ما أراد؟!

إن «**الإمام مالكا**» له كتاب اسمه «الموَطَّأ» وطّأَه وذلَّلَه وسَهَّله للناسِ.. وضع فيه كلِّ فِقهه، وكلَّ ما صحّ عنده من الحديث!

وهو أصح كتابٍ بعد كتاب الله كما قيل!

إنه يريد أن يقرأَهُ عليه، ويتلقّاه عنه..

لقد بحث عن «نُسخةٍ» من كتاب مالكٍ فوجدَها غاليةَ الثمن!

وظروفه لا تسمح بشرائها! فماذا يَفْعَلُ؟

استعارها من أحدِ شُيوخه في «**مكة**» وعكف عليها ليل نَهارَ حتى حَفِظَها!، وكان قد سبق لهُ إلمامٌ ببعْضها!

وليس ذلك بغريب على الشافعيَ، فقد درّبَ نَفْسَه منذُ الصِّغر على أن يعتمدَ على نفسهً حينما عجز عن ثمن الورق!

وزاده حِفْظُ «الموَطّأ» شوقًا إلى لقاءِ صاحبه.. وإلى صُحْبته ومُلازَمته.. حتى يأخذ كلَّ ما عنده!

وجهزته أمُّه لهذا اللقاءِ العظيم!!

وباعت في سبيله بعضَ أثاثِ البيتّ

إنه لم يلق الإمامَ «**أبا حنيفة النعمان**» الذى لقى ربَّه يوم مولده، أو معام مولده!

فليكن له لقاءٌ مع «إمام دار الهجرة»، وشيخ المدينة.. وعالم أهل الحجازِ «**مالك بن أنس**» أحد الأئمة الأربعة.. وإما أهل الحديث!

وفي سبيل العلم تهونُ كلُّ الصّعاب!

لا تَحسَب المجدَ تَمْرًا أنت آكلُه
لن تبلغَ المجدَ حتى تلْعَق الصّبِرا[1]

(1) الصّبِر؛ بكسر الباء: عصارة شجر مر.

خطاب توصية!

ويحملُ الإمامُ الشافعى «خطابَ توصيةٍ» على أعلى مُسْتَوًى من والى «مكة» إلى والى «**المدينة**» لكى يرافقه إلى الإمام مالك، ويُوصى به خيرًا!!

فمثلُه في نُبوغه وتقوقه جدير بالعناية والرعاية.. ونسبُه الشريف يجعلُه أجدَر بحفظ حديث رسول الله ﷺ، وبينه وبين الوالى قرابةٌ ونَسَبٌ!، وهو اهل لهذا الطلب!! فلا عجب إذا وجدناه موضع اهتمامِ واليَيْ مكةَ والمدينة! ولكن العجبَ هو ما حدث بعد ذلك!

ويقُصّ علينا الإمامُ الشافعِيُّ قصةَ قُدومِه إلى المدينةِ، ومعه «**خطابُ توصية**» من «**والى مكة**» إلى «**والى المدينة**» لكى يصلَه بالإمام مالك فيقول: «**دخلتُ إلى والى مكةَ**»..

وأخذتُ كتابهُ إلى «**والى المدينة**».. وإلى «**مالك بن أنس**» فقدِمْتُ المدنيةُ، فأبلغت الكتابَ إلى الوالي..

فلما قرأه قال: يا فَتَى..

«**إن مَشْيى من جَوف المدينة إلى جَوف مكةَ حافيًا أهَونُ عَلَيَّ من المشيِ إلى باب مالكِ بن أنس!**».

إن له هيبة عظيمة من نفس من يلقاه!! ولَيس منَ السهل اقتحام مجلسه بغير موعد سابق!

فقلت: أصلحَ الله الأمير!

إن رَأَى الأميرُ أن يُوَجِّه إليه حتى يَحْضُرَ!

فقال: هيهات!

ليت أنِّى إذا ركبتُ أنا ومنَ مَعِى، وتحملْنا ما تحملنا نلنَا بعضَ حاجتنا!!

فواعدتُه العصرَ، ورَكبْنا جميعا..

فوالله لقد كان كما قال!!

نالنا من نالنا من التُّراب حتى وصَلْنا إليه!!

وهناك تقدّم رجل فقرَعَ البابَ!

فخرجت إلينا جاريةٌ سوداءُ..

فقال لها الأمير: قُولى لمولاك: إنى بالباب! فدخلتْ؛ فأبطأَتْ، ثم خرجَتْ؛ فقالت:

إن مولايَ يُقرِئك السلامَ، ويقول:

إن كان لدَيْك مسألة، فارفعْها في «**رُقعةٍ**» يَخْرُجْ إليك الجوابُ!

وإن كانَ للحديث[1] فقد عَرفت «**يومَ المَجْلس**»، فانصرف!

فقال لها: قولى له:

إن معى «**كتابَ والى مكة**» إليه في حاجة مهُمّة!

فدخَلت، وخرَجَت، وفي يدها كُرْسِيٌّ، فوضَعَتْه، فإذا أنا بمالكٍ قد خرج، وعليه المهابةُ والوقَار، وهو شيخ طويل!

فرفع إليه الوَالى الكتابَ..

فأخذ في قراءته، حتى إذا بلغَ ذلك الموضع من «**خطاب التوصية**» وفيه:

«**إن هذا الفتى يهُمنى أمرُه وحالهُ، فتُحَدّثُه، وتفَعْلُ وتصْنَع!**» .

فرمى بالكتاب من يده!، ثم قال: سُبحانَ الله !!

أوَ صَارَ عِلمُ رسول الله ﷺ يؤخذ بالوسائل؟! (**الواسطة**).

فرأيت الواليَ قد تهيَّبَه أن يُكَلّمه!!

فتقدّمتُ إليه وقلت:

أصلحَك الله! إننى رَجلٌ مطَّلبى (أنتسب إلى المطّلب بن عبد مناف).

(1) لدراسة حديث رسول الله ﷺ وتلقيه عن الإمام مالك.

ومن حالى وقصتى كذا.

فلما سَمعِ كلامى نظر إلىّ ساعةً.. وكانت له فِراسة فيمن يَراهُ، ويتحدثُ إليه!!

فقال لى: ما اسمُك؟!

فقلت: محمد.

فقال لى: «**يا محمد، اتق الله، واجتنب المعاصى فإنه سيكون لك شأن من الشأن!!**».

كان الفتى إذ ذاك قد تجاز العشرين بقليل، وملأ مالك قلبه هيبةً له، وتقديرا. وقال في نفسه:

إن هذا الإمامَ طِرازٌ فريد.. يحترمُ نفسَه.. ومن لّمْ يُكرّمْ نفسَه لا يُكَرَّم..

يرى أن العلمَ يُؤتَآ ولا يأتى..

يرى أن العلماءَ ورثة الأنبياء.

ومع سماحته، فإنه جادّ حازم في عمله..

لا يبُيحُ وقتَه للناس.. فلجسمه عليه حق.. وللناس عليه حق!

إنه لا يستقبلُ مَنْ يَطرقُ بابَه خلالَ ساعات العملِ أو الراحة فإن لجسمه عليه حقا، وإن لربه عليه حقا، وإن للناس عليهَ حقا!

إنه لون جديد فريد من العلماء!

وبينما الشافعى يستمع إلى حديث النفس إذا بمالك يقول:

«**يا محمدُ، إن الله قد أَلْقى على قلبِك نُورًا فلا تُطْفئِهْ بالمعصية!**».

«**يا محمدُ، إذا ما جاء الغدُ تجي.. ويَجيء معك من يقرَ لك..**».

فغدوتُ عليه، ومع «**الموَطّأ**».

وابتدأتُ أن أقرأ من الحافظة، والكتابُ في يدي!

فكلما تهيبتُ مالكًا، وأردتُ أن أقطع، أعجبه حُسْنُ قراءتى، وإعرابي! فيقول:

«**يافتى، زِدْ**» حتى قرأتُه عليه في أيام يسيرة..

كان ذلك اللقاء عام 170 هـ أي بعدَ عشرين عاما من ولادة الشافعي.

وظل الشافعيُّ ملازمًا للإمام مالكٍ حتى لقى مالك ربّه سنة 179هـ.

لم يتركْهُ إلا لزيارةِ أُمّه بمكةَ، أو ليقومَ برحلة إلى إحدى «**عواصم العلم والفقه**» بإذن من إمامِه مالك الذي كان يُجَهّزه بالمال والزادِ، ويدعو لَه بالتوفيق! وظلت أصداءُ كلمات إمامه تُدَوّي في أُذُنَيْه:

يا محمد، «**إن الله قد ألقى على قَلْبِك نُورًا فلا تُطفئه بالمعصية!**».

وعاشت هذه النصيحة مع الشافعى ليصوغها في ديوانِه شعراء فيقول:

شكوتُ إلى وكيع سُوءَ حفْظى فأرشدنى إلى تَرْك المعاصي!
وأخبرنى بأن العلمَ نورٌ ونــورُ الله لايُهــدى لـعَـاصي!

ويذكر «**الربيعُ بنُ سُليمان**» الراوى المِصريُّ أنه سمع الشافِعيّ يقولَ عن لقائه للإمام: «**وقدمتُ على مالك، وقد حفظتُ الموطّأ**»..

فقال: أُطلبْ مَن يقرأُ لك.

قلتُ: لا عَليكَ أن تستمعَ قراءتى! فإن سَخُلَ عليك قرأتُ لِنَفْسي!

قال: اطلُبْ مَن يَقْرَأُ لك!

وكرّرْتُ عليه!

فقال: اقرأ..

فلما سَمِعَ قراءتى؛ قال: اقرأ.

فقرأتُ عليه حتى فرغت منه[1]!».

فلما فرغ منه قال له: «**يابْن أخى تَفَقَّه تَعْلُ**».

(1) آداب الشافعى ومناقبه للرازى ص 27 – 28. سلسلة تراث الإنسانية.

الروح الهائمة!

كان الشافعيُّ يأبى إلا أن يستكملَ المسيرةَ التى بدأها في طلب العلم!

فلقد لزم «**مالكًا**» بالمدينة المنوَّرة مُنذ أن ارتحلَ إليه.

لم يتركه إلا بإذن منه في طلب العلم، أو زيارة أمه ثم يعودُ إليه! حتى فرّق الموتُ بينهما!

وكانت رحلته إلى المدينة المباركة ذاتَ أثرٍ عظيم في حياته!

فقد أتيح له في المدينة أن يلقىَ «**محمدَ بن الحسن**» تلميذ أبى حنيفة، وشيخَ أهلِ الرأى في العراق.

وأُتيح له أن يَلْقى عددًا من «**فُقهاء مصر**» من تلاميذ «**الإمام الليث**»، وأن يملى على بعضهم «**مُوَطأ مالك**»، وأن يعقدَ بينه وبينهم صداقةً كل لها أثرُها عندما هاجر إلى مصر وأقام بها حتى لقى ربّه!

وعرف أن العلمَ ليس مقصورًا على حفظ القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، وآداب اللغة..

إنه يشملُ كلّ العلوم الطبيعية، والرياضية التى تُفَسّر ظواهرَ الكونِ، وتكشِفُ عن قدرةِ الخالقِ العظيم!

فقرر أن يتعلم - من خلال رحلاته - كُلَّ ما يُساعده على فهم الكون من حوله من عُلوم الدُّنيا والدين!

هيا إلى الكوفة

واستجاب الشافعي لذلك النداء الداخلى: «**هيا إلى الكوفة**»، واستأذن إمامه «**مالكا**» فأذن له، وزوّده بنفقات الرحلة ودعا له! وخرج وهو في «**الثانيةِ والعشرين**» للقاء محمد بن الحسن، وأبي يوسف

تلميذى الإمام أبي حنيفة النعمان بالكوفة.. وصلَ إليها بعدَ رِحْلة شاقّة استغرقت أربعةً وعشرين يومًا! ولكنْ كُلّ شيءٍ يهونُ أمامَ تحقيق الهدف!

لقد حَمَل معه بعدَ «**رحلة الكوفة**» حِمْلَ بَعيرٍ من الكُتب!

ومع هذا فقد واصل الارتحال.. سافر إلى بلاد فارس..

وطاف ببغداد وشمال العراق والأناضول!!

ثم سافر إلى بلاد الشام..

وعاد إلى مكةَ لزيارة أما، وليطمئن عليها! وليُؤَديَ لها حقا واجبا!

ثم عاد -بعد عامين- من رحلاته إلى أستاذه وكان دائم السؤال عنه!

عاد وقد تزوّدَ بكثير من المعارف.. معارفِ عَصْرِه!

وكان «**مالك**» قد أصبحَ في سَعَةٍ من العيش بعد أن أجرى عليه الخليفةُ «**هارونُ الرشيدُ**» راتبًا كبيرا، ووصَلَه بالأموال والهديا!

وعاد «**الشافعيّ**» إلى أستاذِه ليحكيَ له كُلَّ ما تعلَّمه في رحلتِه، وما كان فيها من طرائف! وما صادفه من مواقف!

عاد باحترام كبير لأبي حنيفة النعمان، وأعجب بطريقته في الحوِار، واستنباط الأحكام كما لمَس ذلك مع صاحبيه:

أبي يوسفَ، ومُحَمّدٍ بن الحسن.

ودافع عن الإمام أبي حنيفة وقال قولتَه المشهورة: «**الناسُ عِيالٌ في الفقِه على أبي حنيفة**»، وظل الشافعيُّ وفيّا لأستاذه «**مالك**»، مُلازما له إلى أن بلغ التاسعة والعشرين!

- وعند صفو الليالى يحدث الكدر

فقد مات إمامه، وتركه وحيدا بالمدينة!!

وبكاه الشافعيُّ.. وأحسّ بالغُربة بعد وفاته!

رحلة عمل إلى اليمن

ولم تطب للشافعيّ الحياةُ بعد وفاة أستاذِه، وعاد أمه بمكة!

وأخذ يبحث عنك مكانٍ يجدُ فيه عملا.. يرتزق منه!

وكان والى اليمن قد قَدم إلى الحجاز، فتوسّط بعضُ أقرباء الشّافعى مِن القرشيين عند والى اليمن، فصَحِبَه معه إلى اليمن، وأسْند إليه عملا!

لقد كان أستاذُه «**مالك**»يُزَوِّدُه بنفقات الارتحال ولكنه لقى رَبّه!

لم يكن عند أمّه تزوده به..

رهنت «دارًا» كانت لها بمكة.. وسافرت معه لتكون إلى جانبه في غُربته!

غضب عليه بعضُ شيوخه لقَبُوله «**الوظيفةَ**» وقال، «**تجالسوننا، وتسمعون منِا؛ فاذِا ظهرَ لأحدِكم شيءٌ دخل فيه**»!

ولم يكن بُدٌّ من السَّفر إلى اليمن، وأُسْنِدَ إليه عمل بنجران باليمن.

وهناك عاود دراسة «**علم الفراسة**» حتى تفوّق فيه!

وجلس إلى بعض شيوخ الشيعة باليمن، وتلقى عنهم!

وأيتح له لقاء مع تلميذ «**الليث بن سعد**» وصاحبه: «**يحيى بن حَسّان**» وأخذ عنه كلَّ ما انتهى إليه من فقِه «**الإمامِ الليث**»!

ولقد قام مع ذلك بعمله خيرَ قيام، وأحبّه الناسُ لتمسكه بالشريعة، وبُعده عن المجاملة والتملق!

لقد كان عفيفَ اليد واللسان، متحلّيا بالطهارة في عمله مما أغضب بعضَ العُمّال المنحرفين!

فألصقوا به تُهمةً، وكتبوا إلى الرشيد بشأنه، وأنه ألف حزبا للثورة على الخليفة! لقد اتهموه بالتّشيُّع، وكان ذلك سنة 184 هـ.

وأرسلَ الرشيدُ في طلبه مع تسْعَةٍ آخرين حُكم بإعدامهم، ونجا الشافعيّ برأسه حين شهِد له «**مُحَمّد بن الحَسَن**» وكان له شأنه عند الرشيد!

وأذن له الرشيد في الذهاب إلى مكة ليتفرغَ للعلمِ في «**أم القرى**».

ومنحه كثيرًا من العطايا والهبات!

وعندئذ عرف أنه أخطأ حين قَبل المَنْصِب بنجران باليمن!

ولقد أتاح له وجودُه في العراق أن يقترب من «**أهل الرأى**» وأن يقرّب «**أهلَ السنة**» من «**أهل الرأى!**».

وقبل أن يتوجّه إلى مكةَ لزم «**محمدَ بنَ الحسن**» في بغداد يَغترف من علمه، ويُحاورُه، وكان قد بلغ الخامسة والثلاثين!

وأطلق عليه العراقيون: «**ناصرَ السنة**».

وقد استطاع أن يُقنع «**أهل الرأي**» بما عند «**أصحاب السنة**».

ولكن لم يبق في العراق إلا أعواما قلائل، عاد بعدها إلى مكة!

فتعال نتابع خطاه..

العودةُ إلى مكةَ!

عاد الشافعيُّ إلى «**مكةَ**».

فلقد أصبح في وضع يسمحُ له بالتَّفَرُّغِ الكامل للعلم بعد أن منحَه هارونُ الرشيدُ من عَطاياه الكثير!

وها هو ذا يُنْفِق نصفَ ما حَمَلَه من العراق على فُقَراءِ مكةَ تنفيذًا لوصيةِ أُمّه أن يتصدقَ على الفقراء بنصفِ ما معه كُلّما قدِم إلى «**أُمَّ القُرَى**»!!

وها هو ذا يجلس في «**المسجدِ الحرامِ**» ساعاتٍ قليلة بعد الفجر للتدريس والإفتاء، ويقضى بقيةَ النهار في البحث، والتأمل، والاستنباط.

إن «**الإمامَ أحمدَ بنَ حنبل**» أحدُ رُوّاد حَلْقَتِه!

إن أهلَه في مكة «**أُمَّ القرى**» يُريدون أن يَبقَى بينهم بعد أن جاوز الخامسةَ والأربعين، وأصبح له بمكة مدرسة للفقه كمدرسة أبي حنيفة بالعراق، ومدرسة مالك بالمدينة، ومدرسة الليث بمصر!

وإنهم ليطلقون عليه: «**المفتى المكي**» و «**العالم المكي**»!

آن للشافعى أن يُفْتيَ

هناك مثل عربى يقول: «**عِنْدَ الصبَاحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرَى!**».

والسُّرَى (بضم السين): السَّيْرُ لَيْلًا، ويُضرَب في احتمالِ المشقة.. والحثّ على الصبّر.. حتى تُحْمَدَ العاقبة!

وقد تحمّل الشافعيُّ كُلّ المشاقّ..

وتحلّى بالصبّر..

وكانت العقبةُ محمودَةً!

فها هو ذا وقد عاد إلى مكة – بعد موت إمامه – يجلس في ثوبه الأبيضِ.. وجهِه المشرقِ، تعلوه سُمْرةٌ خفيفة.. على مقرُبةٍ من بئر زمزم يَفيضُ على مستمعيه.. ويَرويهم من بحرِ علمهِ.. ويا له من بحرٍ عميقِ القرارِ.. بعيدِ الشُّطآن!

وها هو ذا يُجيب عن الأسئلة في ذَكاء وعَبْقريّة.. فيَذيعُ اسمُه.. ويكثرُ تلاميذُه.. وعلى رأسِهم الإمام الجليل: «**أحمد بن حنبل الشَّيْبَانِيّ**»!

لقد أصبح الشافعى جديرًا بالإفتاء! ولا عجبَ، فقد جمع علوم الدين والدنيا من قرآن، وحديث وفقه، ولغة! وأجاد الرمى والفُروسِيّة! وزاده الله بسطةً في العِلْم والجسم فكان نَموذَجًا يُحتَذى للإمام! نعم لقد جمع علومَ الدنيا آنذاك من نحو، وعَروض، وشعر، ونوادرَ، وأخبار، وأيام، وفلك، ورحلة، وفراسة!

• ويقول «**ابن خلِّطان**» في كتابه: «**وفيات الأعيان**»:

«**اتفق العلماء قاطبةَ من أهل الحديثِ، والفقه، والأُصولِ، واللغةِ، والنحو، وغير ذلك على ثقته، وأمانته، وعدالته، وزُهده، ووَعَعِه، ونزاهةِ عَرِضْهِ، وعِفّة نفسِه، وحُسنِ سيرتِه، وعُلُوّ قَدْرِه، وسخائه**».

• وهذا يونُسُ بن عبد الأعلى يقول:

كان الشافعيّ إذا أخذ في «**العربية**» قلتُ: هو بهذا أعلمُ! وإذا تكلم في «**الشعر وإنشاده**»، قلت: هو بهذا أعلمُ! وإذ تكلم في «**الفقه**»، قلت: هو بهذا أعلمُ!

• ويشيرُ «**الإمام أحمد بن حنبل**» إلى «**فضل الشافعى**» على كل مُتَعَلّم فيقول: «ما مِنْ أحدٍ بيده مِحْبَرة (دَوَاة)، إلا وللشافعى مِنّة (فضل عليه)».

ولا عجبَ، فما كان ينامُ من الليل إلا يَسِيرًا. وكان يَخْتِمُ في كل يوم «خَتْمةً» ويقال: إنه قد جزّأ الليلَ ثلاثةَ أَجْزَاءٍ:

• الثُّلُثُ الأولُ: يكتبُ..

•والثاني: يُصَلّى..

• والثالث: يَنَامُ..

وما ظنُّك بمَن قالَ فيه «**الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل**» من طُرق عنه:

«**إنَّ الله يُقَيِّضُ للناسِ في رأسِ كُلِّ مِئةٍ مَنْ يُعَلِّمُهمُ السُّنَنَ ويَنْفي عَنْ رَسُولِ الله (ﷺ) الكذبَ**». قال: فنظرنا، فإذا على رأس المئة: «**عُمَرُ ابنُ عبد العزيز**» وفي رأس المئتين: «**الشافعيّ**»!!

نموذج من نماذج الأدب الرفيع!

ما أكثرَ تلك المناسباتِ التى نرى فيها صورةً من «**الأدب الرفيع**» الذي ساد حياةَ أولئك الذين كانوا بحقٍّ أئمةً للفِقه!

• فعن صالح بن الإمام أحمد قال: لقينى يحيى بن مَعين، فقال: أما يَسْتَحِى أبوك مما يفعل؟ فقلت: وما يفعلُ؟!

قال: رأيتُه معَ «الشافعيِّ»، والشافعيُّ راكبٌ، وهو راجل (يمشي على رجليه) آخذٌ بزمامِ دابتِه. فقلت لأبى ذلك!

فقال: إن لقيتَه،.

فقُلْ لَهُ: إن أردتَ أن تَتَفَقّه، فتعالَ فخُذْ بركابه من الجانب الآخر!

• وكان الإمام أحمد يقول:

إذا سُئلتُ في مسألةٍ لا أَعْرِفُ فيها خبرًا، قلتُ فيها: يقول الشافعيُّ، لأنه إمامٌ عالمٌ منْ قُرَيْش!

وليس أدل على تقدير الإمام أحمد للشافعى مما ذكره داود بن على الأصبهانى قال: سمعتُ إسحاق بن رَاهَوَيه يقو:

لَقِيَنى «**أحمدُ بنُ حنبل**» بمكة، فقال:

تعالَ، حتى أُريَكَ رجلًا لم ترَ عيناك مثلَه!

فأرانى الشافعيَّ.. كان هذا رأيَ إمامٍ في إمامٍ!!

رأيَ الإمام أحمدَ وله منزلتُه ومكانته - في الإمام الشافعى!

وهكذا يَضْربُ لنا أولئك الفُقَهاء المثلَ الأعلى في حُسن علاقة العلماءِ بعضِهم ببعض! فهم يتأسّى بهذه الأخلاق الفاضلة، أولئك المقلِّدون الذين أُشربوا روحَ التَعصب، ومرَدُوا على التقليد؟!

ألا ليت المتعَصّبين يُلهَمُون تلك الأدابَ الرفيعة التى كانت وليدةَ النية الصادقة في تحرّى الحق، وإصابة الهدف الذى رمى إليه الشارعُ الحكيم!

ولست أُخفي عنك أيها القارئ الكريم أننى «**حَنَفيّ المذهب**» لكن الإمام الشافعيَّ موضعُ تقدير الجميع، فضلا عن كونه من ذوى القربى! لقد استنبط للمسلمين من كتاب الله وسنة رسوله تشريعًا كاملًا ينفع الفردَ، وينفعُ الجماعة، وينفعُ المجتمع الإسلاميَّ كُلَّه.

وصار له تلاميذٌ في كلّ بلدٍ حلّ به أو أقام فيه، وها هو ذا يقوم بالتدريس في المسجد الحرام طوال «تسع سنوات» استطاع خلالها أن يتبحرَ في دراسةِ ما يتعلقُ بالقرآنِ والسنُّةِ والاجتهادِ، وأصولِ الاستنباط.

نعودة إلى بَغْداد

ثم انتقل الشافعى إلى بغداد، وهناك سَطَعَ نَجمُه، فأقبل عليه العلماء والمحدِّثون، وأهلُ الرأى، وكيف لا، وهو عَالِمُ قريشٍ الذي جَاءَ لِيَمْلأَ الأرضَ عِلْمًا، وليكون إمامًا للناس!

وهناك ألف «**كتاب الرسالة**» التى وضع فيها أساس علم أصول الفقه (استنباط الأحكام الدينية من مصادرها) وإن كان قد أعاد تصنيفه حين رحل إلى مصر، فكانت هناك رسالة قديمة، وأخرى جديدة!

لقد توصل إلى أن القرآنَ الكريمَ قد جمعَ الأحكامَ.. وجاءت السُّنّةُ شرحًا وتبيانا لما في القرآن!

• فعلى المجتهد أن يبحثَ عن الحكْم في القرآن أو السنة.

فإن لم يجد ففى إجماع الصحابة في كل الأقطار.. لا في المدينة المنورة وحدها!

• فإن لم يجد المجتهدُ حكما في كل ذلك فعليه أن يبحث في «**علّة الحكم**» الواردةِ بالنص، ويُلْحق بهذا الحكم ما يتشابه معه في العلة من القضايا الجديدة، وهذا هو «**القياس**» وبهذه الأصول ارضى الشافعى «**أهلَ الرأى**» و «**أهلَ الحديث**» جميعا.

لقد جاوز الخامسةَ والأربعين، وأصبح له بمكةَ مدرسةٌ وأتباعٌ وأطلقوا عليه: «**المفتيَ المكى**» و «**العالِمَ المكى**» فليذهب إلى العراق لكى يعرض على شيوخه هذا العلم الجديد ويناظرهم فيه!

وبهر بعلمه التلاميذ والفقهاء.

لقد توصل إلى أن القرآن الكريم قد جمع الأحكام، وجاءت السنة شرحًا وتبيانا لما في القرآن.

وتمنى تلميذه أحمد على أستاذه أني قيم في بغداد سنوات فينشرَ علمه، ويؤسس مدرسة فقهية جديدة ولكن لم تطب الحياة للشافعى ببغداد بعد ذهاب الرشيد وانصراف الناس عن الفقه وعلوم القرآن والحديث واشتغالهم بما لا نفع فيه، ولم تعد بغداد كعهده بها.. فقد مات من يأنس إليهم من الرفاق. لقد ملأ الدنيا وشغل الناس!

وها هو ذا «**الخليفة المأمون العباس**» يعرض عليه أن يتولى القضاء ليُصبحَ قاضى قُضاة الدولة العباسية، ولكنه يفتذر إليه، ويأبى أن يقبل المنصب، لقد جرب المناصب حين تولى عملا بنَجران باليمن! ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. لقد آلى على نفسه ألا يتولّى منصِبًا، وأن يخ ﷺ كل وقته للفقه والعلم!

ندعوة كريمة

وفي هذه اللحظات الحاسمة من حياته تلقى دعوة من «**ابن عبد الحكم**» لزيارة مصر.. من واليها الجديد.. ومن أحد تلاميذه!

إن «**ابن عبد الحكم**» يعرفه جيدا، وقد تلقى عليه «**الموَطّأ**» في زيارة له إلى الأراضى الحجازية.

لقد تمنى الشافعى أن يزور مصر..

لقد زار كلّ عواصم الفقه الإسلامي..

لم يبق إلا مصر!

إنه يريد أن يعايش المدرسة المصرية العظيمة في الفقه.. مدرسة الإمام الليث بن سعد..

وها هى ذى الفرصة قد سنحت، وله فى مصر محبون، وتلاميذ معجبون أوفياء.

فليرحل إليها على بركة الله!

وذات يوم أعلن أنه راحل إلى مصر غدا.. وعز على تلميذه: أحمد ابن حنبل أن يفارق أستاذه الشافعي.. فألح عليه أن يبقى معه!

ولكن الشافعيّ كان قد عقد العزم، فلتكن مشيئة الله!

وبك الجميع عند الوداع، والشافعى يردد في نفسه:

لقد أصبحت نَفْسِى تَتُوقُ إلى مِصر
ومِنْ دونها أرضُ المهامِهِ والقفر
والله ما أدرى: أَللفوز والغِنَى
أساقُ إليها أم اساق إلى القبر؟!

وفي جامع «**عمرو بن العاص**» كانت له حلقة ولازمه طلابه وأخذوا عنه علم الكتاب، وعلم الحديث، وعلم الأنساب واللغة، والشعر، والجدل، والمناظرة، بل إنهم كانوا يتلقون عنه الطب في بعض الأحايين.

وخلال أربع سنين أملى ألفا وخمسمائة ورقة، وأخرج «**كتاب الأُمّ**» في ألفى ورقة، و «**كتاب السنن**». ومعظم الذى في أيدى العلماء من كتبه الآن هو مما ألف في مصر، لقد لازم الاشتغال بالتدريس والإفتاء في جامع عمرو، وكان يجلس في حلقته إذا صلى الصبح حتى يقرب على نصف النهار فينصرف إلى منزله!

الإمام الشافعى كما كان يرى نفسه

قال الربيعُ بنُ سليمان:

سُئل الشافعى -رحمة الله- عن مسألة، فأجاب عنها ثم أنشد:

إذا المشكلاتُ تَصَلّيْنَنِي
كشَفْتُ حَقَائِقَها بالنظر
ولَسْتُ بإمَّعَةٍ في الرجال
أُسائلُ هذا وذا ما الخبر؟
ولكننى مِدْرَهُ الأَصْغَرَيْن
فَتّاحُ خَيْرٍ، وفَرَّاجُ شَرّ[1]

الرحيل إلى الله

ما أكثر الرحلات التى قام بها الشافعى في العلم..

وقد سئل ذات يوم عن سر حمله للعصا؟

فقال: لتذكرنى بأنى على سفر.. واليوم، وقد أزف الرحيل حين اشتد عليه المرض يصف لنا المُزَنى ما كان من الشافعي حين دخل في مرضه الذي مات فيه، فيقول:

قلت: يا أبا عبد الله، كيف أصبحت؟ فرفع راسه وقال:

أصبحتُ من الدنيا راحلًا..

ولإخوانى مفارقًا..

(1) الأبيات في تاريخ ابن عساكر وطبقات الشافعية للسبكي.

والإمعة: الذي لا رأي له. والمِدرة: الخطيب والمتكلم بلسان القوم الذي يرجع إلى رأيه.

والأصغران: القلب واللسان.

ولِسُوءِ عملى مُلَاقيًا..

وعلى الله واردًا..

ما أدْرِى: روحى تصيرُ إلى جنة فأهَنّيَها؟!

أو إلى نار فأُعَزّيَها؟ ثم بكى، وأنشأ يقول:

ولَمَا قَسَا قَلْبِى، وضاقَتْ مَذَاهبِى
جَعَلْتُ رجائى دونَ عَفْوِك سُلَّما
تعَاظَمَنى ذَنْـبـى فلما قَرَنْتُه
بعفوِك رَبّـى كان عفوُك أعْظَمَا
فمازلتَ في عفوِ عن الذنبِ لم تَزَلْ
تـجـودُ وتعفُو مِـنَّـةَ وتَـكَـرُّمَـا
فـإن تَنْتِقِمْ منِّى فَلَسْتُ بآيسٍ
ولَو دخَلَتْ نفسى بجُرْمى جَهَنَّمَا
ولـولاك لم يُغْوَى بإبليسَ عابدٌ
فكيف، وقد أغوى صَفِيَّك آدَمَا
وإنـى لآتى الذَّنْبَ أعْـرِفُ قَـدْرَه
وأعـلـمُ أَنّ الله يَعْفُو تَرَحُّمَا

ويقول من اشترك في تشييع جنازته:

مات يوم الخميس، وانصرفنا من جنازته ليلة الجمعة فرأينا هلال شعبان سنة أربع ومئتين، وله نيف وخمسون سنة، ودفن بمصر بعد أنقضى بها أربع سنوات وبضعة أشهر، وقبره بمصر معروف مشهور.

رحم الله الإمام، ورفعه إلى أعلى مقام!

العالم والجاهل

عن الأَصمعيّ، سمعتُ الشافعيّ يقول:
العالمُ يَسْأَلُ عَمّا يعْلَمُ، وعَمّا لَا يَعْلمُ..
فيُثَبِّت ما يَعْلَم.. ويتعلّمُ ما لا يعلم!
والجاهلُ يغضبُ من التّعَلّمْ، ويأنَفُ من التعليم.

أدب العلماء

كان الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين يُحَدّثُ عَنْ أحمدَ لا يُسمّيه تغظيمًا له، بل يقول: حدّثنا الثقةُ من أصحابنا أو أنبأنا الثّقَةُ.. أو أخبَرنا الثّقَةُ..

موقفه من حديث رسول الله ﷺ

قال الربيع: سمعته يقول: أيُّ سماءٍ تُظلُّنى، وأيُّ أرضٍ تُقلُّنى إذا رويتُ عن رسول الله صلى حديثا، فلم أقل به؟!!
ويُروَى أنه قال:
«إذا صَحّ الحديثُ فهو مذهبي»
«وإذا صح الحديثُ؛ فاضربوا بقولى الحائطَ».

الأصل والثمرة

يقول الشافعى: أصلُ العلم التثبيتُ، وثمرتُه السلامة.
وأصل الورع القَناعةُ، وثمرتُه الراحة.

وأصلُ **الصبر** الحَزمُ، وثمرتهُ الظفر.
وأصلُ **العَمل** التوفيقُ، وثمرتهُ النُّجْح.. وغاية كل **أمرِ** الصِّدْق.

التوقف عن الحَلِف بِالله!

كان الشافعى يقول:
ما حلفتُ بالله صادقا، ولا كاذبًا!

هدفُه أن يَظْهَر الحق

كان الشافعى يقول:
ودِدْت أَنِّى ناظرتُ أحدًا أن يُظهرَ الله تعالى الحقّ على يديه!

إنكار الذات

كان يقول: «ودِدْت أن الخلقَ تعلّموا هذا العلمَ على أن لا يُنْسَبَ إلىّ منه حَرْفٌ!..
أرأيت إنكارًا للذات أجملَ مما كان عليه الشافعى؟!
يقول «**الشيخُ زكريا الأنصاري**» معلقا على قوله هذا:
«.. وقد أجابه الحقُّ إلى ذلك؛ فلا يكاد يُسْمَع في مذهبه إلا مقالاتُ أصحابه:
قال الرافعي.. قال النووي.. قال الزَّرْكَشِي.. ونحو ذلك»

فضل طلب العلم

وكان يقول: طلبُ العلمِ أفضلُ من صلاة النافلة.

طلب العلم وخدمة العلماء

وكان يقول:

من طلبَ العلمَ بِعزِّ النفسِ لم يُفلِحْ!

ومن طلبهَ بذُلّ نفسه، وخدمةِ العلماء أفْلَح!

السبيل إلى التفقه

وكان يقول:

تفَقّه قبل أن تَرْأسَ.. فإذا رَأَسْت فلا سبيلَ إلى التفقه.

جمال العلماء،وزينة العلم

وكان يقول: جمالُ العلماء كَرَمُ النفس.

وزينةُ العِلْمِ الورعُ والحلمُ.

أقبح العيب!

وكان يقول: لا عيبَ بالعلماءِ أقبَحُ من رغبتهم فيما زَهّدَهمُ الله فيه!

إنما العلم ما نفع

وكان يقول: ليس العلمُ ما حُفظ؛ إنما العلمُ ما نفع!

المِراء في العلم

وكان يقول:

المِراء في العِلِم يُقَسّ القلبَ، ويورث الضغائن.

الاستماع إلى العلم

وكان يقول: من يسمع بأذنه صار حاكيًا..

- ومن أصغى بقلبه صار واعيًا.
- ومن وَعظ بفعله كان هاديًا.

فن معاملة الناس

يقول الشافعى:

- ما رفعتُ من أحدٍ فوقَ منزلتهِ إلا وُضعَ منِيِّ بمقدار ما رفعتُ منه!
- ضياع العالم أن يكون بلا إخوان.
- وضياع الجاهل قلةُ عقله.
- وأضيع منهما من واخىَ من لَا عقلَ له! (واخاه – آخاه).
- من اُسْتُغْضِبَ فلم يَغْضَبْ فهو حِمار!
- ومن استُرضِيَ فلم يرضَ فهو شيطان!

التلطف في النصح

وكان يقول:

- من نصح أخاه سرّا فقد نصحه وزانه.
- ومن نصحه علانية فقد فضحه وشانه!

إياك أن تفعل

وكان يقول: لاتقصّر في حقّ أخيك اعتمادًا على مُرُوءته، ولاتبذلْ وجهك إلى مَن يَهونُ عليه ردُّك!

أظلم الظالمين لنفسه

وكان يقول: أظلمُ الظالمين لنفسه:

- من تواضع لمن لا يُكَرِّمُه!
- ورغب في مودة من لا ينفعه!
- وقبل مدحَ من لا يعرفه!

إحسان الظت بالناس

وكان يقول:

- من أحبّ أن يُقْضَى له بالحُسنى فليُحسنْ بالناس الظن!

عِزُّ التقوى

وكان يقول:

من لّم تُعِزّه التقوى، فلا عِزّ له!

العبودية والخضوع

وكان يقول:

- من غلبتْه شدةُ الشهوة للدنيا لزمته العبوديةُ لأهلها!
- ومن رضى بالقُنُوع زال عنه الخضوع!

أعظم السرور وأشد الغم!

وكان يقول:

ليس سُرورُ يَعْدِلُ صُحْبَة الإخوانَ ولا غَمٌ يعدلُ فِراقهم!

علامة الصديق الصادق

وكان يقول: من علامة الصديق الصادق في أُخُوّتِه: أن يكونَ لصديقِ صديقهِ صديقًا!

نور القلب، وكيف السبيل إليه؟

وكان يقول: «من أحبُّ أن يفتَحَ الله عليه بنورِ القلب، فعليه بالخلْوة.. وقلةِ الأكل.. وتركِ مخالطةِ السُّفهاء. وبغض أهل العلمِ الذين لايريدون بعلمهم إلا الدنيا».

مشقة سياسة الناس

وكان يقول: «سياسة الناسِ أشدُّ مِنْ سيَاسَة الدوابّ»

من العاقل؟

وكان يقول: «العاقلُ مَنْ عَقَلَهُ عَقْلُه عن كُلَّ مذمومٍ»

عزة نفسه ومروءته!

وكان يقول: لو علمت أن الماءَ الباردَ يُنقِصُ مُروءتى ما شربتُه!

*****

وبعد... فقد آن الأوان لنستكمل دراسة أئمة الفقه الأربعة بدراسة حياة الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى إمام المحدِّثين وأعلم أهل زمانه!